السير والتوجه والانقطاع الى الله

«قبل الخوض في المحاضرة لا بد من بيان شيء عن الطريق الى الله «سبحانه وتعالى» مما يستفاد من الروايات التي صدرت عن أهل البيت «عليهم السلام» .. ان مما دل عليه صريح الفطرة بالاستعانة بروايات أهل الذكر عليهم السلام : أن الانسان عليه مواصلة السير الى ربه من دون انقطاع .. ولا شك أن مواصلة السير تستدعي عدم التوقف وهذا لا يكاد يتمكن عليه الانسان العادي الا اذا عرف كيف يكون تحركه في محبة الله .. وكيف يكون توقفه في محبة الله ؟ كيف يكون توقفه في محبة الله وكيف يكون فعله للعبادة موضع محبة الله ورضاه .. وكيف يكون تركه للعبادة المستحبة أيضا محبوبا لله وفي رضاه .. والا فانه لا يستطيع ان يجعل فعله وتركه كلاهما محبوبين لله «سبحانه وتعالى» اذا لم يعرف هذه القاعدة ، ولذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام بأنه يجب أن يواظب الانسان على النوافل والمستحبات ولكن في حالة أحساسه الضجر أو الملل أو غير ذلك أن يقتصر على الواجبات وان يريح نفسه من المستحبات »

وليس معنى ذلك ان يترك المستحب الّا بنية اخذ الرخصة بمعنى ان الله «سبحانه وتعالى» كما يحب ان يؤخذ بعزائمه يجب ان يؤخذ برخصه فاذا نوى في ذلك النوم يحتال على نفسه حتى لا تكثر من الطاعة فيريحها من هذا المستحب في هذا الوقت بنية الاخذ برخصة الله ولا شك انه بذلك يكون أيضا قد اطاع الله ويكون أيضا في تركه هذه العبادة المستحبة لا يزال مواصلا للسير الى الله لانه لم يترك تلك العبادة عن اهمال او احتقار او كسل او غير ذلك وانما تركها اخذا برخصة الله «سبحانه وتعالى» وهكذا في كل ما يفعل ويترك مثلا من المستحبات او المباحات او غير ذلك أن يفعل المباح متقربا به الى الله ـ ان يترك المباح متقربا بتركه الى الله فاذا سار على ذلك يكون وقوفه وحركته كلاهما في الحقيقة سيرا الى الله .. ولا شك ان الله «سبحانه وتعالى» حاشاه ان يتقرب اليه عبد من عباده فيطرده أولا يعينه على التقرب اليه ـ كيف ؟ وقد قال في الحديث القدسي «**من تقرب الي شبرا تقربت منه ذراعا**» ... وايضا لا بد للانسان ان يلاحظ وهو في طريق سيره الى الله «سبحانه وتعالى» ان تكون اعماله كلها من اجل الله وليس فيها اغراض اخرى .. وهذه القاعدة او هذه الحالة ما لم يلاحظ الانسان نفسه ويلاحظ الاوامر الشرعية الواردة من اهل البيت «عليهم السلام» لا يستطيع الانسان العادي ان يحققها وذلك ان الانسان قد يستعجل في ايقاع العبادة ولكنه بسبب هذا الاستعجال لا يوقع العبادة على وجهها كما لو كانت نفسه غير مستعدة غير مقبلة في ذلك الوقت للعبادة او كان متشاغلا بامر او كان يتألم من جوع او من قلة نوم او غير ذلك فلا شك أن ذهنه لا يصفو عندئذ لايقاع العبادة على وجهها فيدخل فيها الفساد والخلل ـ ولكن أيضا لو اراد أن يؤخرها فان في التأخير آفات وان للشيطان فيها نظرة يثنيه ويبسره ويثبط عزمه ويقول له بعد ان تذهب الى بيتك تصلي النافلة فاذا جاء الى البيت يقول له « لا تحبس عيالك من دون عشاء فوقت النافلة ممتد ويمكنك ان تتعشى ثم تقيم النافلة !!» وهكذا يلهيه عنها آناً بعد آن بحيث يفوت عليه العمل فكما ان للعجلة آفات فللتأخير آفات .. والانسان عليه وهو يريد السلوك الى الله «سبحانه وتعالى» ان يراعي في العجلة عدم وجود آفاتها من الرياء او أن يؤدي العبادة على غير وجهها على غير قانونها الشرعي أو ان يكون يؤديها بغير حضور فكر بدون اقبال نفس وكذلك في حالة تأخيرها : أن يراعي في حالة التأخير ان لا يفوت عليه الشيطان ذلك ولكن كيف يستطيع الانسان ان يدرك هذا بذهنه او بنفسه حتى يتجنب آفات التعجيل وآفات التأخير ؟

لا شك ان المبادرة الى الطاعات واجبها ومستحبها مامور به من قبل الله «سبحانه وتعالى» ـ قال سبحانه وتعالى «**وسارعوا الى مغفرة من ربكم**» أي اقامة العبادات والاعمال باسرع ما يمكنكم في اوائل اوقاتها وهذه القاعدة الشرعية هي التي تكون القاعدة الاولى ولا شك ان العبادة حسنة في حد ذاتها محبوبة الى الله في ذاتها فتكون المبادرة اليها محبوبا عند الله لذاته لكن اذا كان يدخل في المبادرة اليها عدم اتقان العمل فعندئذ لا تكون المبادرة مطلوبة من الله «سبحانه وتعالى» وعلى الانسان ان يختبر نفسه فان كان يرى ان الاستعجال في تاديتها كان بداعي النفس بداعي الهوى بداعي اغراض دنيوية اخرى فلا شك ان تأخيرها عن ذلك الوقت افضل له من الاسراع بها وكذلك عليه ان يلاحظ نفسه وهو يريد تأخيرها حتى يأتيها على وجهها أي حتى يتقن العمل عليه ان يلاحظ ان لا يكون التأخير بداعي هوى النفس أو بداعي اغراض دنيوية اخرى فهذا ايضا يجعل التأخير في الحقيقة توقفا عن السير الى الله وانقطاعا من السير نحو الله ـ فاذن عليه ان يلاحظ ذلك .

ولا شك ان الانسان اذا لاحظ هذين الجانبين يعرف ان كان هذا التأخير بسبب الكسل او بسبب امر شرعي محبوب عند الله فان وجد أن كسله بادر الى ذلك مخالفا لنفسه وان كان رأى انه واقع بالتأخير يستطيع ان يوقعها على وجهها الاكمل والافضل فعندئذ يكون تأخيره ايضا عبادة وكذلك لو لاحظ نفسه في قضية التأجيل أو التعجيل فوجد نفسه تميل الى التعجيل لهوى ـ «مثلا يشهد له الناس بانه يصلي نوافل او يعلم به الناس انه يتصدق او يعلم به الناس انه يفعل كذا» فعندئذ لا يكون هذا التعجيل من المسارعة التي امر الله بها بل مخالفة النفس في هذا المقام هي العبادة السلوكية الى الله «سبحانه وتعالى» وعلى الانسان دائما ان يلاحظ ان يكون وقوفه وحركته كلاهما في الحقيقة سير الى الله سبحانه وتعالى حتى يجعل كل أوقاته معمورة بذكر الله وهذا معنى قول امير المؤمنين «عليه السلام» في دعاء كميل أو المعروف بدعاء الخضر «واجعل اوقاتي من الليل والنهار في ذكرك معمورة» أي انه في كل لحظة من لحظاته في كل سكنة في كل حركة في كل وقفة انما يفعل ذلك بعد ملاحظة نفسه وازالة ما بها من تعلقات الشيطان الذي يريد ان يصرف حركته أو سكنته عن الله «سبحانه وتعالى» .

وقد يعرض للانسان أمران يكون احدهما أصعب على النفس من الآخر ـ فكيف يرجح بينهما ؟ هل تقول ان القاعدة في السلوك الى الله دائما هي أختيار الاصعب ؟ أم نقول ان القاعدة في السلوك الى الله هي أختيار الاسهل ؟

★ ترك العبادات الواجبة والمستحبة والمباحة أهمالا او أحتقارا او كسلا أنقطاع عن مواصلة السير الى الله ...

لفضيلة الشيخ سليمان المدني

«الدرس الثامن عشر :»

★ من شروط القاعدة الشرعية عند ايقاع العمل واتقانه الشروط الاعتقادية والنفسية والفكرية والقلبية وايضا الجسمية

المروي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» وعن طريقته في الحياة : انه ما عرض له أمران الا أختار أصعبهما واشدهما والمروي عن الحسن «ع» انه ما عرض له أمران الا أختار اسهلهما على نفسه .. ولا شك أن عليا «ع» .. والحسن «ع» في حد ذاتيهما لهما احوال خاصة لا تبلغهما عقولنا ولا تبلغها عقول الانام ولذلك فهم اعرف بشأنهم ولكن من حيث انهم ائمة يقتدي بهم فهم لا شك أنما يفعلان ذلك بقصد تعليم الغير وإلا شئونهما الخاصة عند نفسيهما يعني لا تظنوا ان هذا المروي عن أمير المؤمنين «ع» وهذا المروي عن ابي محمد الحسن «ع» يختلف بسبب أختلاف حالاتهما في حقيقتها ـ لا وانما كلاهما اراد ان يعلم الناس شيئا .. وكلاهما اراد ان يرى الناس كيف يتصرفون في امور دينهم من الاخذ بالعزيمة والاخذ بالرخصة ـ فان عليا «ع» يأخذ بقوله «صلى الله عليه وآله» «أفضل الأعمال أحمزها» ولا شك ان هذا لا يكون مقدورا عليه من كل الناس وفي كل الاوقات وكذلك ابى محمد الحسن «ع» عندما يقول انه اذا عرض له أمران أختار أسهلهما الى نفسه لا يعني بذلك إلا تعليما للناس بانه حينما يجد الانسان من نفسه انه غير قادر على أن يوقع الامر الاصعب على وجهه فليختر الاسهل لأن المهم هو إتقان العمل والعمل غير المتقن لا يوصل بصاحبه الى الله «سبحانه وتعالى» ـ العمل غير الخالص لله «سبحانه وتعالى» لا يوصل بصاحبه الى الله سبحانه وتعالى .

الا ترون الى الخوارج مثلا الذين يقول فيهم النبي «ص» قبل ان يوجدوا «لو رأيتموهم لإحتقر احدكم صلاته في جنب صلاتهم واحتقر عبادته في جنب عبادتهم» لكن مع ذلك يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ـ النبى «ص» يصفهم بكثرة العبادة وطولها ثم يقول «انهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» .. كيف ؟ لانهم في الحقيقة لم يشتغلوا بتلك العبادات الطويلة والصعبة بنية خالصة الى الله «سبحانه وتعالى» ولم يوقعوا العمل على وجهه متقنا فلا يفيد عندئذ هذا التعب بل يذهب هباء منثوراً «وعمدنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا» لانه لا بد ان يوقع العمل على وجهه لا بد ان يتقن فعل العمل .. والعمل له شروط من شروط اعتقادية ونفسية وجسمانية وذهنية يعني العمل الذى لله «سبحانه وتعالى» ليس هكذا ؟ فما لم يتقن الانسان كل شروطه كيف يكون لله «سبحانه وتعالى» ـ مثلا : ما اشتهر عن بعض النسّاك او الزهاد من المسلمين حتى قال في احدهم الشاعر :

كلنا طالب صيد
غير عمر ابن عبيد !!

ومن هو عمر أبن عبيد هذا ؟

رجل يحب الزعامة ويريد أن يترأس على الناس وينكر إمام زمانه ويستعين بكل وسيلة من اجل الوصول الى هذا المآرب ومنها ترك المأكل والمشرب والصيام والنوم طيلة السنة والمواظبة على الصلاة وكل ذلك .. ومع ذلك هو لا يؤدي شكر نعمة الله «سبحانه وتعالى» ـ كيف ؟ لأن في القرآن آية قليل من الناس من يعقلها ـ يقول سبحانه «ما كان لكم أن تنبتوا شجرها» ـ يعني ـ الانسان يدعى لنفسه أن ينبت الاشجار هذه حتى يأتي الله ويقول «ما كان لكم ان تنبتوا شجرها» ! هم لا ينبتون الاشجار .. وفي الرواية «أن من انكر شجرة أنبتها الله فهو كافر ومن أنبت شجرة لم ينبتها الله فهو كافر ومن ادعى بان لهذين في الاسلام نصيب فهو كافر» كيف هذه الرواية كيف تفهم ؟

ما هي الشجرة هذه التي ينبتها الانسان والله لم يأذن بانباتها ؟

الشجرة التي أختص الله نفسه بانباتها في هذا المعنى ومنع الناس من أنباتها هي «الامامة» يعني ليس للانسان ان يقيم أماما من عند نفسه وبرأيه ويدعي انه مفروض الطاعة وتجب موالاته .. هذا معنى أنبات الشجرة من عند نفسه !! «وما كان لكم ان تنبتوا شجرها» .. وكذلك إنكاره شجرة أنبتها الله يعني أنكاره إمامة امام نصبه الله !!

على أي حال هذا الرجل من هذا القبيل لكن في نظر الناس «كلهم يطلبون الصيد الا عمر أبن عبيد !!» ولا يعلمون ان عمر بن عبيد يطلب الصيد لفرائه ويجعلهم صيدا فاذن ليست طاعة الله «سبحانه وتعالى» باجهاد النفس في العبادة «فرب مجهد مضيع ورب صائم لا يفيده من صومه الا الجوع والعطش» وانما المهم عند الله سبحانه وتعالى ان يوقع العمل على وجهه الصحيح متقن له اي جامعا لكل شرائطه الاعتقادية والقلبية والذهنية والفكرية والجسمية فاذا كان كذلك كان ذلك العمل لله سواء ان ناسبه في تلك اللحظة الامر الصعب من الامرين اللذين عرضا له او الامر الاسهل من الامرين اللذين عرضا له ولكن عليه وهو يختار الاصعب ان يلاحظ نفسه ان لا يكون أختياره للاصعب لأمر دنيوي .. وعليه وهو يختار الاسهل أن يلاحظ نفسه ان لا يكون أختياره للاسهل لامر دنيوى حتى يكون في مجال أخذ الرخصة او الاخذ بالعزيمة كلاهما سائر الى الله سبحانه وتعالى .